

عندما يفقدنا الخوف كل حسّ منطقي...

في العصر الحديث، لدى وسائل الإعلام الإخبارية القدرة على تضخيم هذه التشوّهات العاطفية لا سيما عبر استخدام صور تتّجه مباشرة إلى الدماغ العاطفي.

إليك هذا: استمرّ أسامة بن لادن في قتل الأميركيين والأوروبيين الغربيين عقب أحداث 11 أيلول، ولو بطريقة غير مباشرة. كيف ذلك؟ اختار عدد كبير من المسافرين أن يتنقلوا في سياراتهم بدلاً من الطائرة، مما أدى إلى ارتفاع عدد ضحايا حوادث السير (كلما قدنا السيارة لمسافة تتخطى الثلاثين كيلومتراً، يصبح خطر الموت أكبر منه في الطائرة).

لكنّ الأنباء لم تأت على ذكر حوادث السير هذه - إنها مجرد عدد. لدينا صور قتلى العبوات الناسفة وليس صور من قتلوا على الطريق، فبحسب قول منسوب لستالين "وفاة شخص مأساة أما وفاة مليون فإحصاء".

يتجاوب جهازنا العاطفي مع الملموس والقريب. بحسب معلومات مستقاة من روايات غير علمية، يتفاعل جهازنا العاطفي بسرعة مع الأخطار البعيدة لكنّ سرعان ما ينساها. وهكذا تضع المشاهد المتلفزة للتفجيرات في لندن سكان كليفلاند في حالة تأهب قصوى، لكن ما إن تحدثت مأساة جديدة حتى ينسون الحذر الأول.

العييب البشري الثالث مرتبط بالثاني، وهو على علاقة بطريقة تصرّفنا انطلاقاً من إدراكنا الحسيّ للأمور، وما هي أنواع السلوك التي تثير إعجابنا. نتأثر بالصور المثيرة لأبطال يهتّبون للعمل بينما تدور الفاجعة أمام عيونهم. لكننا لا نلتفت إلى جهود الوقاية المملّة والطويلة الأمد. هذا لأنّ الوقاية تجريدية ومبهمة، في حين أنّ أعمال الأبطال تروى في حكايات يسهل فهمها.

كيف يمكننا التصرّف بناءً على معرفتنا هذه العيوب البشرية في سبيل جعل مجتمعنا أكثر أماناً؟

يجب أن تؤدّي وسائل الإعلام المرئية والمسموعة، انطلاقاً من قدرتها على التحكم بعواطف الرأي العام، دوراً يئمّ عن مسؤولية أكبر. بالتأكيد يقع على عاتق وسائل الإعلام الإخبارية أن تطلع الرأي العام على خطر الإرهاب وتواتره، لكن يجب أن تفعل ذلك بدون مساعدة الإرهابيين على تحقيق هدفهم، أي زرع الرعب.

وللمشاهد المتلفزة، في حيويّتها وطابعها الخاص، قدرة استثنائية على زرع الرعب بالتحديد، وإقناع المشاهد أنّ خطراً بعيداً واضح وموجود في حين أنّ خطراً ملحاً لكن لا يحظى بالتغطية الكافية لا يدعو أبداً إلى القلق.

على غرار شركات الأدوية، يجب أن تدرس وسائل الإعلام الإخبارية جيداً الآثار الجانبية لمنتجها، ومن بينها تشويه خريطة الأخطار المنطبعة في ذهن المشاهد. نظراً إلى تركيبة الدماغ، قد تكون الصور والروايات المثيرة ضرورية للفت انتباهنا. لكن كما انه لا يقطع الماس الا الماس، يجب أن تجد صناعة الأخبار وسائل لاستعمال الصور والقصص الإخبارية بطريقة تقرّبنا أكثر من الحقيقة الإحصائية.

نسيم نقولا طالب

عن "النيويورك تايمز"
ترجمة نسرين ناصر

المدينة موجة ثانية من الهجمات، بعد أسبوعين فقط من أحداث 7 تموز المسيّبة للصدمة. من الصعب ألا يشعر المرء بالمشاشة أمام هذا العدو غير المنظور الذي لا يتحرّك بحسب قواعد معروفة أو واضحة. لا شك في أنّ هذا هو بالضبط القلق الذي يسعى الإرهابيون إلى توليده. لكنّ العكس، أي عدم الاكتراث، ليس خياراً.

في الحقيقة، لا الكائنات البشرية ولا المجتمعات الحديثة مجهّزة للردّ بعقلانية على الإرهاب. من السهل حشد الحذر مباشرة بعد الحدث لكن سرعان ما يتلاشى بينما يغيّب أيّ أثر للهجمات في الخطاب العامّة. نخطئ مرتين، أولاً عبر المبالغة في ردّ فعلنا مباشرة بعد الكارثة عندما نكون لا نزال تحت وقع الصدمة، ولاحقاً عبر التقيصير عن اتخاذ ردّ الفعل المناسب عندما تتلاشى الذكرى وتصبح مسترخين جداً إلى درجة أنّنا نصبح غير محصنين ضدّ هجمات جديدة.

يستغل الإرهاب ثلاثة عيوب في الطبيعة البشرية مرتبطة كلّها بإدارة الأحداث غير العادية وإدراكنا الحسيّ لها. العيب الأوّل والأساسي لاحظته على مرّ العقود الماضية علماء بيولوجيا عصبية وعلماء سلوك فضحوا مغالطة كبيرة شوّهت التفكير الغربي منذ أرسطو، وفي شكل أقوى منذ حقبة التنوير.

والفكرة هنا أنّه مهما اعتبرنا أنفسنا حيوانات عاقلة، لا نتفادى الخطر من خلال الرشد أو الإدراك أو الفكر، بل من خلال جهازنا العاطفي في شكل أساسي. فالمرضى الذين يعانون أضرارا دماغية تمنعهم من فهم مشاعرهم حتى عندما تكون قدراتهم الإدراكية والتحليلية سليمة، يعجزون عن الابتعاد فعلاً عن الأذى. عدّتنا العاطفية، وليس ما يُعرف بـ"الرشد"، هي التي تتحكّم بقدرتنا على حماية أنفسنا.

ثانياً، يمكن أن يكون هذا الجهاز العاطفي ساذجاً جداً في الإحصاءات لأنّه بُني لبيئة بدائية حيث الأخطار بسيطة. قد يفيدك عندما تصادف أفعى أو نمراً. لكن بما أنّ الجهاز العاطفي سريع التأثر ويفضّل المعلومات السطحية والاجتماعية والقصصية على المعطيات التجريدية، فهو يعرقل قدرتنا على التعاطي مع المخاطر الأكثر تطوّراً التي تحدّق بالحياة العصرية.

على سبيل المثال، من شأن وفاة شخص تعرفه في حادث دراجة أن تثنيك عن ركوب الدراجة أكثر مما قد يفعل تحليل إحصائي موضوعي وأشدّ تعبيراً عن الواقع بلا أدنى شك. وقد تتفادى الذهاب إلى "سنترال بارك" انطلاقاً من تعليق واحد سمعته في حفلة كوكتيل بدلاً من تكبّد عناء قراءة الإحصاءات المتوافرة مجاناً عن الجرائم والتي تقدّم نظرة أكثر واقعية عن احتمالات وقوعك ضحيتها.

يمكن أن يشوّه تقدّم المشاعر على ما عداها من الأمور عملية اتخاذنا للقرارات. ففي تصرّف غير عقلاني، يميل المسافرون في المطارات إلى الموافقة على دفع مبلغ للتأمين ضدّ الإرهاب أكبر من المبلغ الذي يدفعونه للحصول على تأمين عام يتضمّن تغطية ضدّ الإرهاب. لا شك في أنّ كلمة "إرهاب" كافية لإثارة ردّ فعل عاطفي في حين أنّ عرض التأمين العام لا يوقظ مشاعر القلق لدى المسافرين بالطريقة نفسها.